نظرات في سورة يوسف (19)

أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

قال سبحانه:(ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين).

تقدم شبه الجملة الظرفية (معه) على المفعول والفاعل؛ لأن يوسف –عليه السلام– هو بطل القصة، ولم يكن داعٍ لذكر دخول الفتيين السجن لولا معية يوسف وما سيترتب عليها، وأمرٌ آخر لإفادة أن هذه المعية في دخول السجن لها دور في أن تجعل بينه وبينهما نوعاً من المودة ونوعاً من الرابطة الخاصة، فضلاً عما في هذه المعية من اللطف في الابتلاء، كما يقول الدكتور أحمد نوفل.

ووصف السجينين المرافقين ليوسف بأنهما "فتيان"، يوحي بأن هذا السجن مخصص للعبيد الأرقاء، وبالذات الذين يعملون لدى كبار رجال الدولة؛ فيوسف، كما هو معلوم، من فتيان العزيز، وأحد الفتيين هو ساقي الملك، وقد قيل إن الفتى الآخر كان خباز الملك، ولا دليل عليه، ولعلهم استنتجوه من رؤياه، لكن كونه يُصلب ربما يوحي أنه كان قريباً من رأس الهرم، فشدة العقوبة توحي بأن جنايته تتعلق بمخالفة بعض الكبراء أو المساس بهم، ولعل السبب في عزل هذا الصنف من المساجين عن باقي السجناء، هو أن لا تتسرب أسرار الدولة إلى عامة الناس، من خلال اختلاط المسجونين بعضهم ببعض.

ومن الواضح أن السجينين قد أهمهما ما رأيا، والفعل المضارع (أراني)، يفيد من جهة تكرر الرؤيا لدى كلا الفتيين، ومن جهة ثانية يفيد أن كل واحد منهما، لشدة قلقه واهتمامه برؤياه، كأنه لا يزال يراها أثناء روايتها، خاصة وأنه يرى نفسه، ما يعني أن الأمر متعلق به شخصياً إن خيراً وإن شراً، ولذلك طلبا منه تأويل ما رأيا، وعلّلا طلبهما بأنهما يريانه من المحسنين.

شاء الله تعالى أن يدخل يوسف السجن لا باعتباره مشكلةً ومأساةً، بل باعتباره (محبوباً)، لكونه عنوان انتصاره الإيماني على النوازع الجسدية، وعلى الضغوط الخارجية التي تتحدى فيه إرادة الإيمان، وقوّة الالتزام. ومن الطبيعي في هذا الجوّ ألا يستسلم لمشاعر الوحشة والفراغ والكآبة، بل أن يستثمر فرص الحركة التي تتيحها الساحة له، وذلك هو شأن المؤمن الداعية الذي يعيش همّ الدعوة إلى الله، وهداية الناس إلى طريق الحق، فلا يترك فرصةً إلا ويستفيد منها في حركته نحو الهدف الكبير، فهو في التفاتةٍ دائمةٍ لما حوله، ولمن حوله، وترقّب مستمر للأجواء الملائمة التي تفتح له قلوب الناس وعقولهم على الحق.

(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون)، يبدأ يوسف عليه السلام، مطَمْئناً الفتيين أنه قادر على تأويل ما رأيا؛ حيث إنه قد اعتاد على أن يخبرهما بكل طعام يأتيهما في السجن ما هو وما حاله، وغرض يوسف من هذه المقدمة أن يستمعا له وهو يدعوهما إلى الله، ويتابع عليه السلام ناسباً الفضل إلى صاحب الفضل، فيشير إلى أن هذا العلم هو بعض عطاء ربه وتعليمه له، لتركه ملة قوم لا يؤمنون بالله فضلاً عن كونهم كافرين بالآخرة. وقد ركز يوسف في كلامه على سبب تركه ملتهم، وهو كفرهم بالله واليوم الآخر، بأسلوب موضوعي بعيد عن الشخصنة والفئوية، دون أن يُعيّن من هم أولئك القوم الذين ترك ملتهم، وتلك نفسية عالية تتعامل مع الأمور بموضوعية، فليس سبب تركه أنهم سجنوه ظلماً ولا لأنه ينتمي إلى قوم غيرهم، كما أنه لم يُعيّن تلك الملة ابتداء؛ لأن الفتيين يدينان بها وهو لا يريدهما أن يسارعا في الدفاع عما يعتنقان بدافع الحمية والعاطفة، وإنما يريد لهما أن يحاكما الموضوع محاكمة عقلية.

وهؤلاء القوم فقدوا أهم أركان الإيمان: وهما الإيمان بالله والإيمان بالآخرة، والإيمان بالله لا يكفي فيه مجرد الاعتراف بوجوده سبحانه والإقرار بأنه الخالق، مع اتخاذ شركاء له أو رفض شرعه كما هي حالهم، وكذلك الأمر بالنسبة للإيمان بالآخرة؛ فليس الأمر مجرد معلومة باهتة أو سطحية ساذجة؛ فقد كان المصريون القدماء يحنطون جثث موتاهم ويضعون الطعام أو النقود مع الموتى في قبورهم

ليستعينوا بها عند قيامهم لاعتقاداهم بفكرة البعث والخلود، ومع وجود مثل تلك الاعتقادات فقد نفى عنهم الإيمان بالآخرة.

وفي قوله:(وهم بالآخرة هم كافرون)، قدم (بالآخرة) ووسّطها بين المبتدأ وخبره؛ لإبراز عظمة وخطورة الآخرة التي بها كفروا وما كان ينبغي لهم، وأتى بضمير الفصل (هم) لتخصيصهم حتى لا ينصرف الذهن إلى غيرهم، أو لتأكيد أنهم كافرون بالآخرة، وإن بدا للناظر خلاف ذلك من حيث بعض العقائد والسلوكيات الخادعة.

ويتابع يوسف عليه السلام:(واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون)، فليس معنى كونه ترك تلك الملة أنه سلبي يتخذ موقف الرفض من كل شيء، بل إن لديه البديل الأفضل الذي سلكه آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب من قبل، وقد بدأ بإبراهيم لأن أخباره قد طبقت الآفاق منذ سنين طويلة، حيث زار مصر وصاهر أهلها، وثنّى بمن بعده وهم أقل شهرة لكن انتسابهم إلى إبراهيم يزيدهم تعريفاً وشهرة، ومن غير المتوقع ألا تكون أخبار أبيه يعقوب النبي معروفة ومتداولة وقتذاك في مصر وغير مصر أيضاً، وهؤلاء الكرام آباؤه من النسب مثلما أنهم آباؤه الذين ورث عنهم النبوة والدين، وحيث قد أكرمه الله وأكرمهم بهذا الفضل فما يجوز لهم أن يشركوا بالله من شيء مهما كان، ذلك أن عماد ملتهم هو التوحيد، والنبوة فضل من الله على حامليها من الرسل، كما هي فضل منه على الناس الذين جاءهم أولئك الرسل، ومع ذلك فإن أكثر الناس لا يشكرون تلك النعمة العظيمة.

ثم يخاطبهما بلهجة فيها المزيد من القرب والتحبب والنصح بادئاً بسؤال يجمع بين الاستنكار والتقرير: (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)، ووصف الأرباب بأنهم (متفرقون) يوحي بأنهم أحياء عقلاء ويُبعد احتمال المعبودات الجامدة وغير العاقلة، والمقصود كما يظهر عدة جهات عليا في الدولة من ذوي النفوذ السياسي أو الاقتصادي أو الديني أو غيرها، ولا ننسى أن الملك قد وُصف بأنه (رب): (فيسقي ربه خمراً)، (ارجع إلى ربك)، والآلهة في المجتمعات المشركة يتداخل فيها القومي بالسياسي بالقبلي بالمعيشي، فالزعماء السياسيون منهم من يدّعي الربوبية، وقد كان لكل قبيلة من العرب في الجاهلية صنمها الخاص مثلاً، وأما الآلهة الأخرى

المزعومة أو المُدّعاة فإن الكهنة ومن يدّعون تمثيل تلك الآلهة هم من يتحدثون نيابة عنها، ويصدرون الأوامر والنواهي والتشريعات باسمها، وكأن يوسف عليه السلام يشير ليس فقط إلى تعدد الآلهة، ولكنه أيضاً يشير إلى ما يطلق عليه اليوم مراكز القوى المختلفة في الدول، وهذه المراكز تتصارع وتتنازع فيتمزق بتمزقها المجتمع ويصبح أهل البلد الواحد شيعاً متنازعين، لا بل إن الشخص الواحد ليكون في أحيان عديدة لا يدري هل يطيع هذا الرب أم ذاك؟ وهل ينحاز إلى هذا الرب أم ذاك؟ ويصدق في تلك الحالة قول الله تعالى: (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون).

ومن إيحاءات المقابلة بين الأرباب المتفرقين مع الله الواحد القهار، أن هذه الأرباب لا يملك أحدها، حتى أكبرها وأعلاها وأقواها، أن يطويها تحت جناحه ويُسيّرها بأمره، ثم هو لا يستطيع أن يغلبها ويقهرها فيضطر إلى التعايش معها.

ومن إيحاءات (الواحد القهار) قوة إيمان يوسف ورسوخ يقينه وثقته وتفاؤله وإيمانه بالله، على الرغم مما هو فيه من السجن والبلاء؛ فهو مع وجوده في السجن مظلوماً إلا أنه لم ييأس من رحمة الله ولا عدله، ومع كونه مقهوراً مغلوباً لم يداخله شكٌ ولا ريب في قدرة الله ونصره وتأييده وغلبته، على من يجتمعون ضده ويجمعون عليه، ولقد رأى مصداق ذلك يوم أن أجمع عليه إخوته، ثم يوم أن أجمعت القافلة السيارة، وكيف جعل الله مثواه كريما في بيت العزيز، وكيف نجاه سبحانه من امرأته بحضور سيدها على غير ميعاد، ونجاته من اتهامها الباطل بشهادة شاهد من أهلها، وأخيراً يوم تآزرت عليه وتكاتفت امرأة العزيز والنسوة، حيث صرف الله عنه كيدهن، وكأن يوسف عليه السلام يقول: إن هذا البلاء الذي أنا فيه في السجن لن يطول بإذن الله، وستكون عاقبته خيراً لي.

ويتابع يوسف حديثه للفتيين: (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

فبعدما تحدث يوسف عليه السلام معهم بالحقائق الموضوعية والأفكار المجردة، واطمأن إلى اتفاقهم معه، كرّ على معبوداتهم الباطلة، ثم بين لهم أن الأرباب المتفرقين الذين يعبدونهم ليسوا في الحقيقة أكثر من أسماء سمَّوْها هم وآباؤهم، وسواء كان المقصود الآلهة المسماة من البشر كتسمية الملك

رباً وغير ذلك، أو الحديث عن آلهة للخصب أو الحب والزرع والنور والمطر وغيرها، فتلك أسماء لم يعطها الله حجة ولا مقدرة ولا سلطاناً قاهراً، وهو الذي يعطي للأشياء والأشخاص الأحكام بصلاحيتها أو بطلانها وكل ما يتعلق بشأنها.

وقد لفت يوسف صاحبيه إلى أن عملية صناعة الآلهة وتسميتها، هي من اختراع أوهامهم وأوهام آبائهم من قبل، وكلامه يوحي بأن هذه العملية هي عملية مستمرة وكل جيل، كما يبدو، يستحدث آلهة جديدة تستدعيها التطورات الجديدة.

وحيث أبطل معبوداتهم فقد أخبرهم بمن تجب عليهم عبادته وهو الله سبحانه، وأن هذا ليس موقفه الشخصي بل هو أمر الله تعالى، مؤكداً أن ذلك الدين العالي المنزلة هو الدين القيم، والقيم فيها معنى المستقيم، وفيها معنى الذي له القوامة والسيادة والهيمنة والغلبة على ما سواه، وفي ذلك تأكيد لهم أن دينه لا بد ظاهرٌ ومنصورٌ على الدين كله، كما أن الله تعالى منزل هذا الدين، هو الواحد القهار، ولأن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة، فإنهم يدينون به.